ولادات متقطعة

زياد خداش

أنا من مواليد كرتونة أبو الصافي

تمشي إلى جانبي في مسيرةٍ ضد الاحتلال برام الله، في البداية لم أعرفها، في البداية لم تعرفني، في لحظةٍ ما التقت عيوننا فأدركنا أننا الآن في مصيدة زمنٍ محبٍّ ومحبوبٍّ، لا يتركنا في حالنا أبداً، هو يستضيفنا الآن على طبقٍ من حلم وشهداء. الأربعينية الجميلة جداً، التي جَنّنت جنود حرس الحدود في أواخر الثمانينات، لم تعد عشرينيةً، الأم الحامل التي دوّخت عقلَ الاحتلال وقلوبَ شباب الانتفاضة الأولى، لم تعد بنتاً. أشارت إليّ إلى أول المسيرة، كأنها قالت: انظر ابنتي، إنها هناك تهتف. أشرت إليها بعينيّ إلى منتصف المسيرة: كأني قلت لها: انظري طلابي إنهم هناك يهتفون، لم نقل كلمةً واحدةً، لم نبتسم حتى، كل شيء قاله لقاء الزمنين المرتبك في بؤرة حرجة.

منذ أكثر من عشرين عاماً، كنت معها وفيها وخلفها وأمامها نتراكض في شوارع رام الله، هرباً من رصاص المحتل، نرفع جريحاً إلى سيارة إسعاف، أو نحذر شباباً من جنود متربصين، في شارع فرعي أو نوزع البصل للتخفيف من أثر القنابل المسيلة للدموع، أو نحرّض أصحاب المحال على إغلاقها، كنت أتحين الفرصة لأقول لها في لحظة موت أو جرح أو اعتقال: إني أحبك، وأحب فلسطين.

عرفت فيما بعد أن الشباب الذين صاروا كهولاً الآن ويمشون في المسيرة نفسها، كانوا يريدون قول هذه الكلمة لها، كانت المحبوبة المفترضة لكل واحد منّا، كنا نخجل ونؤجل اعترافنا، وكلما هجم الجنود وقتلوا أو اعتقلوا أو جرحوا صديقاً لنا، كنا نقول في سرّنا: بعد أن تهدأ أسطورة دمنا سنتفرّغ للحب، لكن الأسطورة استمرّت، ولم نقل الكلمة حتى الآن..

غادرت مدينة دراستي إربد الاردنية الى رام الله في شتاء ١٩٨٩ ولم أعد إليها حتى الآن، ثلاثة وعشرون عاماً تفصلني عن آخر ليلة قضيتها هناك بصحبة أصدقاء في حفلة وداع لي متنا فيها من

الضحك، في إربد وحدها يسمح بالضحك المميت والرقص الدموي في الشوارع دونما سبب، من النادر أن تجد شخصاً يتذمر من ضحك جاره، أو يحتج على طالب يرقص في باحة بيته، من العام ١٩٨٣ وحتى العام ١٩٨٩ وأنا أضحك وأقرأ وأكتب،

وأحاول أن أحب، في هذه المدينة المحبة والمفتوحة والراقصة ولدت نصوصي الأولى بمفردات راقصة ونهايات مفتوحة غالبا.

أنا من صنع إربد، كاتباً أولاً وإنساناً، أنا من فجرها وبناتها ورائحتها وليلها وخبزها، أنا من ذاكرة إربد، فيها التقيت بغسان كنفاني اللقاء الثاني، وإيميل حبيبي ومحمد زفزاف وصنع الله إبراهيم، ومحمد خضيّر، ، وكاتب ياسين، وتيسير سبول، والطاهر وطار، وإدوارد الخراط، وآخرين، التقيتهم في برد غرفتي الدافئ في شارع السينما، سكنت مع شاب «كاريزمي» بشكل مخيف، بثقافة واسعة، بسخرية جاهزة من كل شيء، المهندس رمضان صافي، كان يعطيني كتباً غريبة لأقرأها، وكنت سعيداً، ومرة اكتشفت في غيابه كرتونة كتب سمينة تحت سريره، نهشتها بعينيّ فإذا بها كنوز من الروايات وكتب النقد والفلسفة والشعر، كان يقرؤها خفية عنا حتى لا نتقاتل عليها ونقرأها قبله: لفوكنر، وغالب طعمة فرمان، وسعدي يوسف، وصموئيل بيكيت وماركيز،ولوتريامون، وفالتر بنيامين، وآخرين كثيرين.

من كرتونة (أبوالصافي) السرية ولدت مباهجي الجمالية الكتابية، وسقطت أحلامي الكبيرة.

في إربد وحدها لا يموت طالب من مرض أو حادث سير، هناك يموت الطلاب من الكتابة، من الحب، من القراءة، من الحلم، سقط رأسي في القدس في مستشفى (الهوسبيس) تحديداً، في إربد سقط قلبي، ونصي الأول، مَن تراه وطني؟، مسقط الرأس الفارغ أم القلب الممتلئ؟ ولدت بين وطنين، وطن الرأس القلقة ووطن القلب الباحث عن طمأنينته.

بين الولادة السرية والموت المحتوم فسحة لمتعة واحدة هي الكتابة.

من كرتونة أبو الصافي إلى كرتونية الواقع الأدبي، في فلسطين واقع الصلابة والرفض المتخشب، ومن صندوق أبو الصافي إلى صندوق الواقع وآبائه في السياسة والأدب.

كان ذلك فقط إلى حين، فقد فهمت مع جيلي معنى البقاء الأبله في دائرة النص الراكد، في تلك المرحلة قررنا الرفض.

تمردنا على كل شيء، حتى على أمكنة الأمسيات الشعرية، ذهبنا الى الأسواق والأرصفة، تعرضنا للزجر و للسخرية وكان هذا جميلا ومطلوبا، فالزجر صنو الجمال، صار كل ما هو مقرر حراماً

علينا، وكل ما هو معتاد عيباً أخلاقياً فاضحاً بحق كرامة البلاد وهيبتها .

ثرنا على معنى العبارة المعتاد، وصار معنى غياب دم الشهيد من النص هو معنى حضوره بشكل مكثف، اكتشفنا روعة أن نمحو ونلغي ما لا يتوازى مع حرارة انتمائنا الجديد للحياة بكل معانيها من عبث وأخطاء وتحطيم.

أنا ابن أرض مؤجرة منذ النكبة لتسعة وتسعين عاماً، صارت الأرض شيئاً غريباً اسمه المخيم، في المخيم تكونت أسئلتي وتفجرت عواطفي الواسعة في فضاءٍ مكانيٍّ ضيق، لم يكن أول سؤال وجهته إلى أبي عن كيفية مجيئنا للعالم، أوماذا تفعل مع أمي حين تدخلان الغرفة وحدكما وتغلقان الباب، كان أول أسئلتي هو لماذا سعال جارنا قريب منا إلى هذا الحد يا أبي؟.

درّبني قرب سعال جاري أن أكون قريباً من الناس، كتابة وحياة، فكان المتسول أنور الذي بلا أسنان صديقاً حميماً لمسائي، بينما أثثت صباحاتي رؤية الشقيقين الأصمّين وهما يمران على صوتي كل صباح في طريقنا جميعاًإلى مدارسنا، أما العجوز المنهك الذي يصعد طلعة متنزه رام الله شاماً وردةً، فقد كان علامتي على أنّ في الظهيرة الفلسطينية الذبيحة ما يبهج القلب، بائع الكعك المثقف، الذي يسألني باستمرار عن قصة (كعك على الرصيف) لغسان كنفاني، عمّال المخيم فادي ومحمد ورستم وعبدالجليل، الذين كانوا أصدقائي في حارات المخيم، وزملائي في الصف، وتركوا دراستهم بحكم الحاجة أو الضجر، كانوا يمرون عليّ في رام الله خجلين من الكتب التي في يدي، وكنت أمر عليهم خجلاً أنا الآخر، من الخشونة التي في ايديهم.

في مدرسة المخيم كرهت فدوى طوقان وعبد القادر المازني وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم، كانت قصائدهم ُتدرس بطرق ثلاث مجتمعة: بالصياح والعلامة والعصا، ونجا من كراهيتي آنذاك محمود درويش،وأدونيس، وأنسي الحاج، وآخرون محظوظون عميت عنهم عيون وحش اسمه المنهاج.

تحررت من استبداد وتخلف المؤسسة التربوية لاحقاً، وقرأت بحرية تامة شعرائي وأدبائي القتلى - القتلة في داخلي، واستنتجت أن المدرسة هي أقوى وأسهل وسيلة لقتل أي شاعر. وحين اصبحت مدرسا، صممت على أن احيي قتلاي الجميلين بطريقتي، فاستبدلت العصا بشمعة، والعلامة بالحلم، والصياح بالموسيقى، وانتقمت لي ولقتلاي.

كان رأس الشهيد الرفيق ياسر أبو غوش يتدلى من باب الدورية العسكرية الصهيونية الخلفي، كان الدم ينزف من رأسه بغزارة، سقط الرفيق الشجاع أمامي في شوارع رام الله مضرجاً بنهاية متوقعة..

كان صديق همي الوطني القريب جداً، أحببنا غسان كنفاني معاً، وكرهنا معاً جبرا إبراهيم جبرا،

ومعاً أيضا خفنا من فوكنر وتحمسنا لمكسيم غوركي، وحرضنا رفاقنا الصغار ضد نزار قباني.

فيما بعد خنت صديقي الشهيد بعد أن تحررت من عينَي الحزب، ركضت بسرعة جنونية نحو فوكنر واعتذرت له، وكنت خجلاً جداً من جبرا إبراهيم جبرا الذي سامحني هو الآخر وقادني سعيداً إلى سفينته. لكني واصلت حب غسان كنفاني بدوافع أخرى بالطبع.

أنا من مواليد رفيقي الشهيد، من عقلانيته وصرامته المدمرتين الرائعتين، من دمه، من رأسه المدلى، من كتبه القاتلة والقتيلة.

وحين غرقنا جميعا في أدب وفكر عاصفتنا المختلفة حسين البرغوثي، نجا خيارنا تماما، كان حسين شاعرا ومفكرا وفنانا في طرح الأسئلة، (اقتل أحباءك)، كان أول درس في الكتابة تعلمته على يد حسين، ابتعد عن فلسطين لتقترب منها، اكتب جوهر تجربتك لا بقاياها أو بريقها الخارجي، ليس هناك أدب دول أخرى، هناك أدب فقط، تفلسف دون أن تدري أنك تتفلسف، حطّم قيود نصك اذا شعرت بأنينه هو لا أنينك أنت، في اوسلو فقدنا حسين، حزنا كثيرا، فقد غاب اجمل طارح للأسئلة، امتلأت فلسطين بالإجابات، ولم نشعر باليتم، فقد علّمنا أنه لا نبوة أو قيادة في الكتابة، يموت الأدباء وتبقى كلماتهم.

بعد أوسلو طرأت تغيرات غريبة على حياتي الإبداعية والاجتماعية، تعرفت الى رجل غير موجود في الحقيقة، وإن بدا لكم أنه موجود ويتحرك بينكم مالئاً الدنيا شتائم وإشاعات وقصائد، هذا رجل يتسرب بغزارة من أسوأ أحلامنا وأشد كوابيسنا انتماء للشيطان، تماماً كما تنز سقوفنا نقاط ماء مملة وملحة، في أكثر أوقاتنا حاجة إلى راحة الجسد، هذا رجل لا يتوقف عن الظهور لنا في كل شارع وخلف كل سور وأمام كل مكتبة وحول كل مهرجان، أليس هو نحن؟ في أردأ مرايانا وأسطع اعترافاتنا وأهدأ استرخاءاتنا.

لا نستطيع أن نكره هذا الرجل ولا نستطيع أن نحبه، نحن لا نستطيع أن نفعل معه أي شيء، علينا أن نتكيف مع وجوده نخفي غصتنا ونعيش حياتنا، فهو يشبه العقاب أو اللعنة أو الذريعة أو التحذير أو المهلة الأخيرة.

لقبته بالأوسلوي، سقط فوقنا من عمان، ببشاعة منذورة للقتال، بجمال داخلي مريض، وخدوش في الذاكرة وهزائم في الروح جاهزة، هو حقيقة داخلية نعيشها جميعا، هو ذنوبنا موزعة على شكله ومسروقاته ورائحته وعبثه ونصوصه وكذباته..

عبّر الاوسلوي الغريب كأجرأ وأطرف ما يكون التعبير عن جوهر وروح مرحلتنا المشوشة والمتناقضة والمفزعة، والرخيصة، كان الأوسلوي أنا بتحولاتي وندمي ووهمي، وبهجتي وانفجاراتي وتشظياتي، ومخاوفي وكذباتي، وحداثتي المشوهة.

أنا من مواليد هبوط الأوسلوي على أرض رام الله، من قاعه المظلم وأسئلته العبثية وبكائه السري ليلا، ومعطفه المتعفن ودماره العظيم، أخذني الأوسلوي إلى حيث لا قناعة بشيء، لا تصديق لأحد، لا ثقة إلا بالأم والقصيدة..

هو تماما أوسلو التي سخرت من سعال جاري القريب، وكذبت على حلمي، لكنها قادتني شخصيا إلى حواسي، التي كانت مجمدة باتقان مثابر في ثلاجة الكفاح.

في زمن اوسلو تذوقت لأول مرة، طعم الأنثى الفلسطينية بعيدا عن علاقتها بالأرض والشهداء ثم رأيت البحر ومحمود درويش، وحيفا، وثملا في عوداتي المتأخرة من حانات رام الله، وبرفقة اوسلو الخبيثة الساحرة، مررت مرارا عن دم رفيقي الشهيد، كنت أتوقف قليلا محدقا في الأرض، فيستغرب الأصحاب الثملون : لماذا تتوقف هنا بالذات دوما حين نعود من السهرة؟.

وحين انفجرت الانتفاضة الثانية، انفجرت داخلي التباسات عظيمة: كنت أنظر بقلق من نافذتي الى نوافذ البناية التي يحاصر فيها ياسر عرفات، وهي تدك بالقذائف، ومرعوبا كنت اسألني : كيف ندافع عن رئيسي؟ فأجيبني: اطمئن، فثمة من يحرس البلاد بدمه وتاريخه، أما جيلي فعليه أن يحرس اللغة من قذائف القتلة، كيف سأكتب عن الدبابة وهي تجتاح المدينة؟ وسرعان ما استرد عافية الخيار الذي قاتلنا من أجله:

لن أسمح للدبابة بقصف نهد حبيبتي في نصي.

هكذا صار بوسعي أن أقول إني وجيلي منعنا الدبابة الصهيونية التي اجتاحت مدن بلادنا من الاقتراب من نصوصنا إلا بالمقدار الدقيق الذي نسمح به ليخدم فنيتها، صارت نصوصنا هي الدبابة وصارت دبابات العدو في مرمى قذائفنا. طبعاً لم يحدث كل هذا بسهولة، عانينا نحن جيل التسعينات، من إغراءات الضعف أمام كراهية الدبابة، في نصوصنا، كان ممتعاً أن نكرهها كتابة، وكان مقدساً أن نكرهها خارج الكتابة، المصيبة كانت أن ننقل كراهيتنا لها بكامل حمولاتها الساخنة إلى كتاباتنا، كانت الدبابة تنتصر علينا مرتين، مرة حين تغزونا في عقر بيتنا، ومرة أخرى حين تغزو نصوصنا فتحيلها خطابات ثأر وبيانات ثورة، وفي حربنا مع الدبابة التي تقتحم بيوتنا،أحرقنا الدبابة من خلال حرق النص وبعثرة رماده، فأحلناها إلى هياكل فارغة من الكرتون غير المقوى، وهذا ما حدث، فبعد أن كان الفلسطيني في كتاباتنا أسيراً وسيماً في سجون الاحتلال، يفكر في الخروج

ليواصل نضاله، صار من المحتمل أن يكون رجلاً يائساً، زهق من الحروب، وحلم في إشبيلية مستقراً لبقايا مساحات جسده التي لم تنسها الرصاصات كما هو متوقع، بل أجّلت ثقبها، وصار يمكن أن يكون وجه الفلسطيني مليئا بحَب الشباب، لا بلمعان الشباب، وربما يصبح تاجراً جشعاً، وصار من الطبيعي أن نرى في يديه آثار دم، ليس بفعل رصاصة جندي محتل، بل بفعل انتهاك ذهول بنت صغيرة اغتصبها ذات انحراف شهوة خلف سور مدرسة البنات، ولم يكن صعبا اكتشاف أن المرأة الفلسطينية يمكن أن تكون عاهرة ودميمة ومثلية، ومتعاونة مع المحتل.

أما لغة النص السردي فكانت حصاناً مسناً، بحوافر باردة، محدودب الظهر، ركض كثيراً في ذات المساحة، على ظهره أكياس كبيرة من الحجارة والرسائل البريدية والرصاص، كنا نراقب صهيله المتحشرج الأخير وهو يتقيأ نهايته الحزينة.

انبثق في فضاء فلسطين حصان جديد، بحوافر مجنونة عطشى الى أرض جديدة، لم تتخل نصوصنا عن فلسطين كما سَنُتّهمُ فيما بعد من قبل المدافعين عن صهيل الزمن القديم، عكس ذلك هو الصحيح، صار لفلسطين صوت جديد، أكثر خفوتاً وأقل ألماً، فبعد أن كانت تقتل مرتين، مرة برصاص لغة النص الركيك، ومرة برصاص المحتلين، صارت تقتل برصاص المحتلين فقط.

ولن يفوتني هنا أن أذكر، أن عودة العشرات من مثقفي فلسطين من المنافي بعد اوسلو، كان لها أثر كبير على حياتنا الثقافية وبنية حياتنا وكتاباتنا، كنا محبوسين في سجن أدب سميناه من فرط وحشتنا الثقافية (الأدب المحلي)، فتدفق حشد من ادباء المنفى من مدن المنفى الواسعة، على أرض رام الله الصغيرة، هكذا كان حين عاد يحيى يخلف ومريد البرغوثي واحمد دحبور وغسان زقطان ووليد ابو بكر ورشاد ابو شاور وزكريا محمد وخالد درويش ومحمود ابو الهيجاء وحسن البطل وليانة بدر وفيصل قرقطي، وحسني رضوان، وآخرون كثيرون.

على حدود اوسلو ولدت، على حدود اوسلو وئدت، كأني حلمت يوماً حلماً، أو كتبت نصاً، لم أعد أتذكر، ولا أظن أني رأيت رؤيا، كل ما حدث أني رأيت سبع بنادق تنحني لي في الحلم، وتنبت منها سبع كلمات، فهل تلد البندقية كلمة، البندقية تقتل الكلمة، لذا اخترت القلم، اخترت القلم لأني فهمت الرؤيا، العالم لم يعد يحتاج لنبي يحزن له القمح، العالم يحتاج لأديب يبعث نقاء اللغة، صدّقت حلمي، فصرت كاتباً شقياً وبائساً.

هذه شهادة في الشقاء والبؤس، لكنه بؤس الكاتب وشقاء نصه.